الصوتيات المفرغة للشيخ الخليفي (٣٨)

المال والصحة النفسية وأثر العقيدة

أبو جعفر عبد الله بن فهد الخليفي

alkulife

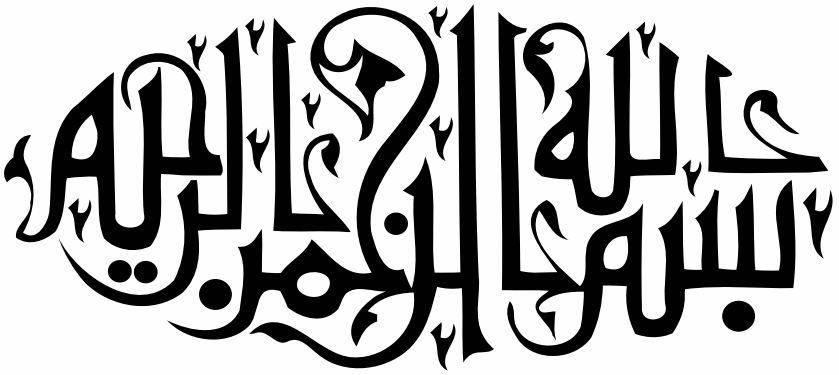
بسم الله الرحمن الرحيم

رأيت تصريحًا لملياردير مصري يقول: "إنه حقق كل شيء يريده ثم أصيب بالاكتئاب وبقي عدة سنوات حتى تخلص من الاكتئاب". التصريح لفت نظري وقلت لأبحث في موضوع علاقة الصحة النفسية بالمال فهل يمكن أن تكون كثرة المال سببًا في الاكتئاب؟ كما أن المال القليل أو مخاوف الفقر قد تكون سببًا بحدوث الاكتئاب. ذهبت إلى دراسات غربية ـ فهم من يدرسون الأمر ـ فوجدتهم في الغالب يتحدثون أو شبه يُجمِعون على أن هناك علاقة طردية بين المخاوف المالية والاكتئاب، يعني بين الفقر، الخوف من النزول إلى حد الفقر، الخوف من الإعدام ككل، التفكير بالديون، وموضوع الاكتئاب، وأنه كلما زاد المال وحصل الأمان المالي يبتعد الناس عن الاكتئاب. إلا أن هناك مساحة معينة يقف فيها المال عن أن يكون مفيدًا في الصحة ـ هٰكذا يتحدثون ـ وقد أفادني بهٰذا أيضًا بعض الاستشاريين النفسيين الذين كلمتهم في الموضوع. وقال لي: "إنهم لا يختلفون أن كل من الأغنياء والفقراء عندهم أسبابهم الخاصة للاكتئاب المتعلقة بالغنى والفقر". وهٰذا يذكّرني بموضوع التكليف عندنا في الإسلام، فالغني له عبوديته، والفقير له عبوديته. ولهٰذا تنازع الناس في الحديث عن الفقير الصابر والغني الشاكر. تأملت الدراسات وأمعنت النظر، ثم بعد ذٰلك قلت: الدراسات إنما حدثت لأقوام يعيشون في مجتمعات فردانية، وغالبًا لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا توجد عنده اعتبارات عقدية متعلقة باسم الله الرزاق وأن رزقك مكتوب،

والإيمان بالقدر وإلى آخر هـٰذه الاعتبارات التي توجد في أهل الإسلام. وبالتالي قلت ماذا لو نظرنا في أثر الاعتقادات أو أثر المجتمعات المحافظة على تقليل نسبة الاكتئاب بسبب الفقر؟ حين نتحدث عن معاني إيمانية فإن هـٰذه المعاني الإيمانية أهل الإيمان أنفسهم متفاوتون في الاستفادة منها لأن الإيمان يزيد وينقص.

أولًا: نحن في مجتمعات كما يسمونها مجتمعات أبوية فيها مؤسسات كثيرة يلتزم فيها الإنسان، الأسرة، والقبيلة، واحترام الكبير إلى آخر هـٰذه المؤسسات، يراها كثير من الشباب عبئًا، ويتضايق منها ومن تسلط كبار السن عليه وتسلط الأولياء مثلًا، كثير من النساء تكون عندها مشكلة من وجود سلطة زوج...، الذي لا يعرفه كثيرون أن هـٰذه المؤسسات الأبوية ـ التي تسمى مؤسسة أبوية ـ نعم قد تزعجك في بعض الوقت، في الشرع ضُبط الأمر أن الأمر في غير معصية، بل أحيانًا حتى في الشبهات لا تطيعهم، ولكنها فعلًا قد تسبب لك إزعاجًا، ولكن في الوقت نفسه تُشكِّل لك دعمًا نفسيًا في المناسبات وفي أوقات الحزن أو اليأس كما دعمتك في بداياتك. وأيضًا تشعرك بنوع من الأمان، فالآن إنسان في مجتمع فرداني يخاف من الفقر أكثر أم في مجتمع أبوي؟ في مجتمع فرداني؛ لأنه إذا افتقر فلن ينظر أحد في وجهه بل سيُرمى في الشارع، ولن يتحدث أحد معه، ولن يلتفت أحد إليه. بخلاف ما إذا كان في مجتمع فيه أسرة ممتدة؛ فيفكر بأخيه فلان وبابن عمه فلان زبزميله بصديقه...،

القبيلة نفسها ممكن يستعين بها، فهـٰؤلاء يمكن أن يفيدوه، وبالتالي خوفه قد يكون أقل، وهـٰكذا تكون نسبة الاكتئاب أضعف، وحتى الطلب من الناس مزعج جدًا، ولـٰكن لما يكون في علاقة قرابة أو صلة أو أفضال لك سابقة على الناس؛ فإن هـٰذا يجعلك مرتاحًا حين تطلب إذا احتجت. وعندنا موضوع الدية: دية قتل الخطأ وجعلها على العاقلة. وهـٰذه المعاني موجودة في المجتمع في موضوع صلة الأرحام. ونزع الأمر الثقيل في هـٰذا السياق فيما يتعلق بالأفكار الجاهلية، ولـٰكن يبقى التكافل المجتمعي.

طيب ننظر إلى أمر آخر: الأمر العقدي ـ وهـٰذا أهم شيء عندي حقيقة ـ حين يؤمن الإنسان أن رزقه يطلبه كما يطلبه أجله ـ كما ورد في الأثر ـ وببذل الأسباب ولـٰكن أن الله ﷻ هو الرزاق، حين يلجأ للدعاء عند العجز عن الأسباب ويتذكر قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الكثير جدًا من الناس يصاب بوسواس في أمر الرزق، ويتضايق ويكون فقره بين عينيه: «من كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه» يكون فقره بين عينيه ثم فجأة يأتي الفرج من الله من غير حِسبة: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ثم يعود الأمر مرة أخرى فيعود السياق في نفسه. الذي يعتقد أنه التفريج السابق كان مجرد صدفة؛ فلن يستفيد من هذه التجرِبة في تخفيف التوترات في التجارب التالية، لكن الذي يعتقد أن التفريج السابق كان من رب رزاق رؤوف رحيم

فسيخف عنه التوتر لأن الله سبحانه وتعالى كرَمُه لا حدود له. لكن الإنسان يتعب وينظر ويدعو الله عز وجل.
أيضًا التخفيف النفسي فمثلًا كثير من الناس يشعر بعقدة النقص تُجاه الأغنياء، قد يكون فقيرًا يكون مكفيًا لا مشكلة، ولٰكنه يشعر بالحسد تجاه الناس الأثرياء من الممكن أن يسبب له اكتئابًا لأنه يشعر بالحسد ومهما حاولت أن تقنعه لا فائدة. بعض السلف أظنه ابن سيرين قال: "ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسد على الدنيا وهي حقيرة في الجنة وإن كان من أهل النار فكيف أحسد على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟" وفعلًا يلتقي مع المعنى الإيماني لأن الإنسان المؤمن يبتعد عن الحسد، كلما أراد أن يحسد استعاذ بالله من ذلك وانتبه. فهٰذا أيضًا معنى قد يخفف الاكتئاب أو ينهيه تمامًا.
أيضًا الشعور بأن الابتلاء فيه أجر، كالأخبار الواردة «فقراء المهاجرين يدخلون قبل أغنيائهم بخمسمئة سنة» والوارد أن قد يكون لله ﷻ حكمة في الحرمان، وإن كنت أنت تطلب ولٰكن الله أعلم، الحكمة من الله، الأمر عند الله ﷻ وأن هٰذا مخلوف عنده سبحانه وتعالى. أيضًا أمر التشريعات التي تحث على التكافل والصدقة بين أهل الإسلام؛ هذا يصنع شيئًا عظيمًا جدًا في السياق. في الحقيقة أنا أوردت المثال لأنبّه على أمر، الكثير جدًا من النفسية تتناول الإنسان الليبرالي أو تتناول الإنسان الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر أو الإنسان الذي لا يوجد عنده مقدمات عقدية تخفف.

العلوم الإنسانية مثل علم النفس وعلم الاجتماع لا يمكن أن تنفصل عن الدين. بل هي في الواقع بدائل لأمور عالجها الشرع. تارةً تكون بدائل، وتارةً تكون نوع من أنواع المعالجة الزائدة، ولٰكن لا بد أن تدخل عقيدة الإنسان، يستحيل أن نوجد شيئًا محايدًا في مثل هذه السياقات كما يحصل في السياقات المختبرية والمعملية والعلوم التجريبية الأخرى، يعني شيء يستخدمه عموم الناس للمعرفة، مثلًا لما نتحدث عن الزراعة، الزراعة لها قواعد معينة، افعل كيت وكيت ...إلخ، فيه عوامل داخلية متعلقة بإيمانك واعتقادك أنك تدعو الله ﷻ كيهطل المطر...، هٰذا أمر عقدي، لٰكن مدخله مباشر حين تأتي تدرس الزراعة؟ لا، هٰذا مدخله متعلق بأمر اعتقادك، ولٰكن لا علاقة بما ستمارسه زراعة مباشرة. لٰكن حين يتعلق الأمر بما يسمونه اليوم الصحة النفسية هناك دخول مباشر لمجموعة من الاعتبارات العقدية. حتى جدليات الناس بين السلفية والمعتزلة والأشعرية كل اعتقاد يعطي أثرًا نفسيًا مختلفًا، بحسب الإنسان المعتقِد وبحسب اعتقاده، لهٰذا اعتقاد أهل السنة والجماعة إذا فُهم وطُبق التطبيق الصحيح يعطي أثرًا لا تعطيه البدع والضلالات والأمور التي جاءت من اليونان أو البدع التي جاءت عن فهم فاسد للكتاب والسنة.

فهل المال يمكن أن يكون سببًا في شقاء الإنسان؟ نعم. أحيانًا الإنسان إذا حقق كل شيء يشعر بالملل هذه أيضًا مشكلة. وفي كثير من الأحيان يفتقر للمنافسة،

ربما لا يشعر بقيمة وجوده. لهٰذا تجد أن كثيرًا من الأثرياء يلجئون لوسائل ترفيه غريبة. وقد حدثتكم مرة عن الداركويب وكيف أن مجموعة من الأثرياء يدفعون أموالًا طائلة ليروا أناسًا آخرين وهم يتعذبون، لهٰذا الفكرة التي يذكرها بعض المتقدمين أنه يقولون نحن في سعادة وفي رخاء لو علمها أبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف. هٰذه ليست مثالية زائدة. وليست نوعًا من أنواع الدروشة المطلقة. هو عنده فكرة، هو يقول: أنا وصلت لمرحلة من الأُنس باللّه ﷻ إدراك ما أنا عليه، تقدير النعمة، الشعور العظيم بالنعمة من اللّه لأن كثيرًا من الناس لا يشعر بالنعمة لأنه أَلِفها أو لأنه يراها عند غيره، فلهٰذا تكون من نعمة اللّه ﷻ عليك أن تفقد النعمة حتى تشعر بها مرة أخرى إن جاءتك. أيام الحظر والحجر الصحي كنت إذا خرجت تتجول حين يسمحون لنا بالتجول نشعر أنها نعمة عظيمة وقديمًا كان أمرًا روتينيًا لا نشعر به. الآن الإنسان حين يركب سيارة ويسير بها في الشارع يرى سيارات كثيرة فلا يشعر بنعمة هذا المركب إلا إذا كانت سياراته من النوع الجيد جدًا فيرى السيارات الأخرى دونها؛ ولٰكن إذا سيارتك تعطلت ثم بعد ذٰلك صلحت كيف تشعر وأنت تقودها؟ تشعر وكأنك ملك. من الناس من فهم هٰذا صار عنده استحضار للنعمة بشكل مستمر. فهم لِما هو عليه، والكثير من الحقائق الإيمانية، وأجاب على جميع الأسئلة وشعر باليقين، في كثير من الناس ممكن يبكي؛ يريد اليقين ولا يجده. كثير من الناس الذين

لذتهم علمية تجد عنده عشرات الإشكالات لا يعرف كيف يحلها.

بعد زمن إذا حلها حل كثيرًا منها، ثم صار عنده حل الإشكالات مسألة سهلة جدًا أي إشكال يرِد عليه يحله. هـٰذه لذة عظيمة أنت لا تتخيلها وشيء لا يوازى، تجد إنسانًا يوجد بينه وبين شخص آخر علاقة ودية وأخوّة في الله. هـٰذه لذة عظيمة بعض الناس ممكن لا يعرفها، أحيانًا يكون إنسان غنيًا؛ لهـٰذا لا يثق بأي من أصدقائه، يشعر أنهم جميعا متملقون أو متكبرون عليه، لا يستطيع أن يعيش حالة أخوة مع إنسان لا تربطه به علاقة دم؛ فلا يشعر بلذة الأخوة في الله. هـٰذا الأخ الذي ممكن تحصل معك مشكلة فتجده قاوم معك، تحصل معه فتقوم معه، تعيشون أوقاتًا صعبة ثم تعيشون أوقاتًا فيها رخاء. تتذكرون الأوقات الصعبة مع بعضكم بعضًا فتضحكون. هـٰذه لذة من أعظم لذات الحياة. يوجد أناس لا يجدها، ولا يشعر بها، ولا يستطيع أن يشعر بها.

علاقة الأب بالابن مثلًا إذا الأب ملك، وابنه ولي عهد، عادة تكون العلاقة بينهم ليست بمتانة العلاقة المشهورة بين الآباء والأبناء؛ الأب دائمًا يشعر بينه وبين نفسه أن ابنه يتمنى أنه هو يموت حتى هو يصير ملكًا، والابن يشعر بها أن بينه وبين والده جفوة لهـٰذا الداعي؛ فلا يشعر بحنان الآباء كما ينبغي ولا يشعر حتى بالقلق. يعني من رأى كثير من الناس هو يمرض، فإذا رأى قلق الناس عليه محبتهم له خوفهم عليه لهفتهم عليه؛ يشعر بشيء عظيم،

فيه كثير من الملوك يعرف جيدًا أن إخوانه وأبناء عمومته وأبنائه يتمنون موته اليوم قبل غد فلا يجد منهم لهفة عليه إذا مرض أو تعب والناس درجات، في كثير من ملذات الدنيا يجدها المرء فسبحان الله، في أمور أبناء الملوك لا يجدونها، هـٰذا من رأى الحقيقة الإيمانية تعرف وتستيقن ما الذي أنت فيه، وأنك تعمل للجنة كأنك تراها، شوقك للجنة وخوفك من النار وصيرورتك لها، وفهمك لأسماء الله الحسنى وصفاته العلى وشعورك بالشوق إليه والرجاء له سبحانه وتعالى هـٰذه مقامات عليّة، مثلا لو شعر بها بعض أبناء الملوك ممكن يجدون لها لذة لا توجد في الخمر ومنادمة النساء، هـٰذا أمر يعني حتى يطرحه كثير من الناس في المعارف العامة، كثير من الناس المشتغلين بالعلوم والمعارف تجده يحب القراءة ويحب مذاكرة الأقران ويحب الفلَج في المناظرات ويحب حل الإشكالات ويحب...، أكثر من محبته لملذات حسية كثيرة الناس يُنفقون عليها ملايين. فيقول لك أنا وجدت اللذة في هـٰذا. فليست بدروشة لا تظن ذٰلك بل كلمة قد تحكي حقيقة.